رسالة جوابية من أهل الرباط وسلا عن كتاب الخليفة الموحدي الرشيد

بقلم د/محمد بن معمر*

كاتب الرسالة

هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي[1]، ولد في شهر رمضان سنة 582هـ بمدينة بلنسية، وأصل سلفه من جزيرة شقر القريبة من شاطبة، بينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا شرق الأندلس.

كان في بداية طلبه للعلم شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، ثم تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه ومال إلى الآداب وبرع فيها[2]. ومن شيوخه الأندلسيين الذين أخذ عنهم وتتلمذ لهم، الشيخ أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي (537 – 614هـ)، والشيخ أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (565 – 624هـ)، وعنه أخذ أيضا المؤرخ الأديب ابن الأبار وهو من أكبر أساتذته وأبعدهم أثرا في حياته، لأن ابن الأبار كان معاصرا لأبي المطرّف وهو ابن بلده، والأستاذ أبو عبد الله محمد بن أيوب السرقسطي (530 – 608هـ)، والأستاذ ابن حوط الله الأنصاري(522– 621هـ) والشيخ أبو علي بن الشلوبين، والشيخ ابن عات وغيرهم، وأجازه من المشارقة أبو الفتوح الحصري.

وبعدما أكمل دراسته وأنهى تحصيله العلمي اشتغل بوظيفتي القضاء والكتابة، حيث تولى قضاء أريولة وشاطبة بشرق الأندلس. كما استكتبه أمير بلنسية الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن

مردنيش الجذامي أيام إمارته على بلنسية وخلال انتزاعه لمدينة مرسية من عميد علمائها الفقيه أبي بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب في رمضان سنة 636هـ، وكان الأخير من أبرز أساتذة أبي المطرف حيث انتفع به كثيرا قبل توليه ما تولى من رئاسة بلده مرسية.

ولما سقطت مدينة بلنسية على يد النصارى سنة 636هـ، غادر أبو المطرف الأندلس متجها إلى العدوة المغربية وورد على الخليفة الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن أبي العلا إدريس المأمون (630 – 640هـ) وصحبه حين قفوله من مدينة سلا إلى حضرة مراكش وكان ذلك في سنة 637هـ[3].

واستكتبه الرشيد مدة يسيرة، ثم صرفه عن الكتابة وقلده قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش، ثم نقله إلى قضاء رباط الفتح وسلا، وأقام يتولاه إلى أن توفي الرشيد وخلفه أخوه الخليفة الموحدي العاشر أبو الحسن السعيد (640 – 646هـ) فأقره عليه مدة ثم نقله إلى قضاء مدينة مكناسة الزيتون. ولما بايع أهل مكناسة الأمير أبا زكريا الحفصي، كان القاضي أبو المطرّف هو الذي كتب نص البيعة في 20 ربيع الأول 643هـ، وحين قام إليهم الخليفة السعيد بحنق عظيم بادروا بطلب العفو واعتذروا عما بدر منهم وبايعوه من جديد وكتب نص البيعة ابن عبدون في ذي الحجة من السنة المذكورة[4].

ثم لما قتل الخليفة الموحدي السعيد في صفر 646هـ، اغتنم أبو المطرف تلك الفترة ورحل من مكناسة قاصدا مدينة سبتة، وفي طريقه إليها سلبت منه ثروته في فتنة بني مرين، وقد كتب إلى الشيخ أبي الحسن الرعيني يعلمه بهذه الحادثة وأن ماله المنهوب قد بلغ أربعة آلاف دينار وكان ورقا وعينا وحليا وغيرها.

* قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر

وكان كثير التطلع إلى إفريقية معمور القلب بسكناها مذ فارق جزيرة الأندلس، لذلك ركب البحر من سبتة متوجها إليها بعد حادثة فتنة بني مرين، ووصل بجاية في شهر جمادى سنة 646هـ ودخل على صاحبها الأمير أبي يحي ابن الأمير أبي زكريا الحفصي وكان صاحبها لأبيه. وأقام بها حوالي سنتين يعلّم ويدرّس، وكان الطلبة أثناء ذلك يقرأون عليه تنقيحات السهروردي، وهي من مغلفات أصول الفقه عند طائفة ممن لم يمارس علم الأصول، ولا يتعرض لإقرائها إلا من له ذهن ثاقب[5].

ومن بجاية انتقل إلى تونس حيث مال إلى صحبة الصالحين بها والزهاد أهل الخير برهة من الزمان، ثم نزع عن ذلك، وتقلد قضاء الأربس، فقضاء قابس الذي طالت مدته به. ثم استدعاه صاحب إفريقية الأمير الحفصي المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا (647 – 675هـ)، وصار من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته، ويذكر صاحب الذيل والتكملة أن أبا المطرف داخل المستنصر مداخلة أنكرها عليه، ولما سئل عنه قال المستنصر: ذلك رجل رام إفساد دنيانا علينا فأفسدنا عليه دينه. ويرى نفس المؤلف أن صاحب الترجمة كان متشبعا بالعلوم القديمة متعاطيا لها وأنها السبب في الإخلال بمعتقده والافتتان في آخر عمره، إذ كانت وفاته بتونس في 20 من شهر ذي الحجة سنة 658هـ[6].

ترك أبو المطرف مجموعة من التصانيف في ميادين الأدب والفقه والتاريخ، فمن أثاره التاريخية: تاريخ ميورقة، واختصار كتاب ثورة المريدين لابن صاحب الصلاة. ومن مؤلفاته الفقهية كتاب تعقب فيه على الإمام فخر الدين ابن الخطيب الرازي في كتابه المعالم في أصول الفقه وقد اطلع عليه الغبريني صاحب عنوان الدراية ووصفه قائلا: " وقد رأيت له تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه لا بأس به، وهو جواب سؤال سائل، وهو مكمل لعشرة أبواب حسبما سأل السائل.

أما إنتاجه الأدبي فمنه: كتاب رد به على أحد معاصريه المشارقة وهو كمال الدين أبي محمد بن عبد الكريم الزملكاني في كتابه التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، سماه كتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات. وأما رسائله الديوانية والإخوانية النثرية والنظمية الكثيرة التي خاطب بها ملوك ورؤساء وأعيان وأدباء عصره، فقد دونها الأستاذ أبو عبد الله محمد بن هانئ السبتي (733هـ) ورتبها في كتاب سماه بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة إبن عميرة أبي المطرّف[7]، وهي التي اخترنا منها هذه الرسالة لتكون موضوع هذه الورقة العلمية.

محتوى الرسالة

وردت هذه الرسالة ضمن مخطوط رسائل إبن عميرة المخزومي الذي حصلت على نسخة مصورة منه زودني بها مشكورا الأخ الفاضل أمانة الله صاحب خزانة زاوية سيدي بلعمش بتندوف. ويتألف المخطوط من 126 ورقة، نسخ بخط مغربي واضح دون ان يرد فيه ذكر مكان وتاريخ النسخ. وعدد أسطره 23 سطرا ومقاسه 18x24. وتقع الرسالة المختارة لهذه الدراسة في الورقات 85 – 86 – 87.

إن الرسالة وإن جاءت غير مؤرخة، فكل القرائن والشواهد التاريخية تدل علىأنها كتبت سنة 639هـ، وهي السنة التي نقل فيها إبن عميرة المخزومي من قضاء مدينة هيلانة شرق مراكش إلى قضاء عدوتي الرباط وسلا. ذلك أن الخليفة الموحدي الرشيد قد كتب إلى أقاليم الدولة ومدنها يعلمهم بوصول بيعة أهل تلمسان، فانبرى إبن عميرة المخزومي بكتابة رسالة جوابية عن أهل الرباط وسلا ردا على كتاب الخليفة المذكور. وهو عمل يندرج ضمن نشاطه في خدمة الدولة الموحدية أثناء هذه الحقبة.

وقد جاء في هذه الرسالة بعد الدعاء للحضرة والإطناب في وصف مزاياها ومفاخرها، وتقرير الطاعة والولاء لها، ووصف الكتاب الوارد من الحضرة، أن الطلبة والجماعة والكافة من أهل عدوتي رباط الفتح وسلا قد دُعوا إلى سماع هذا الكتاب في المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة فابتهجوا به وعرفوا منه إتيان بيعة تلمسان. ثم يمضي ابن عميرة في وصف مدينة تلمسان والإشادة بجمالها وأهميتها، وختم الرسالة بوصف فرح أهل العدوتين بهذه البشرى، والدعاء أخيرا للخليفة الموحدي الرشيد.

أما بيعة أهل تلمسان التي جاء كتاب الخليفة الموحدي يبشر بها، فإن هذه الرسالة قد انفردت بالإشارة إليها، إذ لم يرد ذكرها في المصادر المتوفرة لدينا. وكان صاحب تلمسان يومئذ الأمير يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية. وعن علاقته بالدولة الموحدية يقول ابن خلدون:" ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي، ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطّل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش"[8]. ثم يواصل في موطن آخر قائلا:" وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن، أقام دعوتهم بعمله متحيزا إليهم سلما لوليهم، وحربا على عدوهم، وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا"[9].

ويؤرخ ابن خلدون هدايا الخليفة الموحدي الرشيد للأمير الزياني بسنة 637هـ، ولكن أخاه يحي صاحب بغية الرواد يؤرخها بسنة 639هـ[10]، وهذا التاريخ الأخير هو الذي يتلاءم مع رسالة ابن عميرة، ولعل وصول بيعة صاحب تلمسان التي تتحدث عنها هذه الرسالة كان عقب الهدايا المشار إليها.

ويستفاد من كتاب الخليفة الموحدي ورسالة ابن عميرة التي جاءت جوابا له، ومن كلام الأخوين يحي وعبد الرحمن ابني خلدون أن مؤسس الدولة الزيانية كان وإلى أواخر عهد الخليفة الموحدي الرشيد (630 – 640هـ) لا يزال يدين بالطاعة والولاء للدولة الموحدية التي كانت في آخر أيامها، وأنه لم يقطع كل علاقته معها. وهذا عكس ما ذهب إليه صاحب نظم الدر والعقيان حين قال:" وكان استقلال يغمراسن بالملك في أيام الرشيد الذي بعث إليه بهدية عظيمة مؤملا ما كان ممن قبله من الخطبة لهم، فلم يجبه إلى ذلك، وأظهر كل واحد عداوة الآخر"[11].

نص الرسالة

"الحضرة الإمامية العلية، المقدسة الطاهرة المباركة السنية، السعيدة المنصورة المؤيدة الرشيدية، الكفيلة من أعزاز الإسلام بما هي الملية به الرفية، الماضية عزماتها الشريفة حيث تنبو المشرفية.

حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المأمون أمير المؤمنين ابن سادتنا الخلفاء الراشدين، أيد االله أمرها، وأعز نصرها، وأوزع الأمة المحمدية حمدها وشكرها، وأبقى برونق الإشراق والأمان من المحاق شمسها الطالعة وبدرها، عبيدها اللائذون بحرمها، العائذون بكرمها، المتقلبون في مننها العميمة ونعمها، الداعون إلى الله سبحانه أن ينهضهم بحقوق طاعاتها، وواجبات خدمها. الطلبة برباط الفتح وسلا والجماعة والكافة من أهليلهما، سلام الله المبارك الكريم وتحياته، تخص المقام الأشرف الأعلى ورحمته وبركاته، وبعد:

حمدا لله العزيز الحكيم، الفتاح العليم، ذي المن العميم والفضل العظيم، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذي اختص بكرم الخيم، والشرف الصميم، وتأخر بالزمان وله من شرف المكان رتبة التقديم، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا معه بصدق العزيم، حتى صار العلو لحزبه الكريم، وانقلب العدو على هيئة الولي الحميم، والرضى عن الإمام المعصوم المهدي[12] المعلوم القائم بفضيلة العلم

وفريضة التعليم، الطالع بدر يقين في ليل الشك البهيم، وعن خلفائه الراشدين الجارين على نهجه القويم، الراسمين جباه أوليائهم بالترغيب ومعاطس أعدائهم بالترغيم، والدعاء لسيدنا ومولانا الخليفة الإمام الرشيد أمير المؤمنين ابن ساداتنا الأئمة المهتدين بنصر يعد بتمليك الأقاليم، وفتح تلقي إليه البلاد يد التسليم.

فكتب العبيد كتب الله للحضرة الإمامية العلية الرشيدية سعودا تخرق بالأيام معتادها، وفتوحا تعطيها البلاد قيادها، ولازال نصر الله يقدّ أعداءها قبل أن تقود جيادها وتصافح لواءها وبيض الصفاح ما فارقت أغمادها، وبركاتها تعم البسيطة أنوارها، وتكاثر البحار المحيطة بحارها، وتملي على الأيام من عاداتها الكرام ما تطيب به أصايلها وأسحارها ويجري على الاختيار بإسعاد الأقدار ليلها ونهارها.

فعصرنا السعيد هو بيت قصيدة العصور، وحامل لواء الشرف المنصور وبه صح في حتم العوادي ونظم الأيادي قصر الممدود ومد المقصور. عُلمت فضيلته باليقيني من الأدلة، وزاد على من قبله زيادة البدور على الأهلة، والتزام الخاص والعام من الشكر بخصائصه فروضا، وعلموا أن للرزق به والرفق منه بابا مفتوحا وجناحا مخفوضا.

فالحمد لله الذي حلاه بحلى المفاخر، وأذهب بجوده ذكر البحور الزواخر، وجعله حجة واضحة لمن قال كم ترك الأول للآخر، وعند العبيد من خلوص الطاعة، والتزام ما يجب للنعمة من الشكر لها والإذاعة، ما يجب أن يكون عند ارفاء تالد المنة وطارفها، الإحفاء باستيفاء ما يتعين عليهم من وظائفها، ولهم في شكر ما ورثوه منها خلفا عن سلف، وتقلّدها منهم من تقلدها شرف على شرف، مجال كل منهم جاهد في قطعه، ومعه جاذب من زماني عادته وطبعه، على أنهم لو

أنفذوا فيه الأعمار الفسيحة، واستعاروا له الألسنة الفصيحة لأعجزهم المرام البعيد، والشوط المديد، وقالوا لكل لفظة جمعوه ومعنى أشبعوه، أين تقعان مما أريد.

ووصل الكتاب الإمامي الكريم وصل الله لمصدره الأشرف عادة العلو، وسعادة الرواح والغدو، باهرا ( )[13] والإعجاز، رائق الصدور والأعجاز، معطي من صور الكمال أبهاها، لابسا من حلل الحسن ما يقصر عنه كل حسن وان تناها، وحق لكتاب أودعته الحكم الجلية، وأملته الأغراض العلية، واشتمل على أوصاف الهبة الهنية، والعارفة السنية، والعقيلة التي هي حسب الأمنية، أن يكون الكتاب المطهر والعلم المشهور، والطالع الذي أبت آي فضله إلا أن تظهر وتبهر، فكان بحره العذب المعين، ودُعي العبيد إليه فأجابوا مهطعين، وحضروا القراءة يوم الجمعة بعد أن قضيت الصلاة، ووجبت عند جوازه الإنصات، فتلي عليهم نصه الذي هو أعلى درجات النصوص، ولفظه الذي لا ينكر عموم فضله أرباب الخصوص، واستوفوا سماعه فصلا فصلا، وفرعوا على كلمة الزواهر فروعا من البشائر جعلوه لها أصلا.

وعرفوا منه إتيان بيعة تلمسان عفوا بلا تعب، وابتداء دون طلب، وهي البلدة العتيقة، بل الروضة الأنيقة، جمعت محاسن المدائن منها في مدينة، واشتملت على أكمل عدّة ليومي حرب وزينة، حشوها السلاح والكراع، وفاخر متاعها لا يضاهيه المتاع، وقد كانت قديما نأت بجانب، وأومأت من الانقياد بوعد غير كاذب، وأولياء الله بكظمها آخذون، وللهوينا في أمرها منابذون، وبصائر أهل هذا الأمر العلي كسيوفهم مشعوذة، والعهود عليهم بالصبر في مواطن الجلاد مأخوذة، فما أذعنت إلا بعد أن ظن أنها ماء نضب، بل ذماء ذهب، وهاهي الآن قد لبت قبل البيداء، واستحبت فضيلة الابتداء، وجاءت وهي عروس عليها حُليّها، حُسانة[14] أحسن جلاءها وليّها.

هذا والسيف مقروب، والخطى لم تهز له كعوب، والخيل ما أرضاها سير ولا أنضاها ركوب، فأي دلالة على سعادة هذه الخلافة كهذه الدلالة، ولم لا تسحب أيامها ذيول الحسناء المختالة، وكل يوم منها موسم من مواسم الدنيا، وفي كل يد من عطاياها ما لا تسمح به إلا يد العليا.

والعبيد قد قضوا للبشرى حق الإصفاق عليها والاتفاق، ورأوا آياتها في أنفسهم وفي الآفاق، وازدادوا بصيرة فيما لهذه الإمامة السعيدة من مزايا أخذتها بالاستحقاق، واستوفتها على الإطلاق، وعلموا أن ما وعدت به من فتوح على الأثر، وبشائر هي في ضمان المقدر، سحب قد أومضت بروقها، بل شهب حان منها بشروقها، فلهم لسماعها إصغاء، طلب لمرضاة الدعوة الهادية وابتغاء، والفوز بها فوز بسعادة الدنيا والآخرة، والحور له لبوسه من أبهى الملابس الفاخرة، وهم لأيدي الدعاء رافعون، وفي ثنايا الرجاء في القبول طالعون، والدعاء للمؤمن سلاح، وبه لأبواب البركات قرع وافتتاح.

اللهم إن إمامنا هذا أحلم الحلماء، والموصوف كالصحابة الكرماء، بصفات الأشداء الرحماء، اللهم فاكلأه بعينك التي لا تأخذها سنة ولا نوم، واجعل أيامه لا يلحقها في الإخلال بمراده لوم، ولا يمرّ منها إلا باسعاده يوم، اللهم أيده على أعدائك، وأوزعه شكر نعمائك، واحفظه بما حفظت به الصفوة الكرام من أنبيائك وأوليائك، وانصر ملكه في أرضك بملائكة سمائك، آمين آمين، والصلاة على سيد المرسلين، والحمد لله رب العالمين، والسلام الكريم، الطيب المبارك الزكي العميم، أرج النشر، رائق البشر، يخص المعالم القدسية، العالية السنية، ورحمه الله تعالى وبركاته".

الهوامش:

1-كتب عنه الدكتور محمد بن شريفة دراسة وافية تحت عنوان:" أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره"، ونشرها المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1966.

2-إبن عبد الملك، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ج:1، ص: 152.

3-المصدر نفسه، ص: 156.

4-ابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، تحقيق ابراهيم الكتاني وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985م، ص ص: 373 – 378.

5-الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، 1981، ص: 253.

6-ابن عبد الملك، المصدر السابق، ص: 180.

7-ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، ج:1، ص: 65.

8-ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، مج:7، ص: 93.

9-المصدر نفسه، مج:6، ص: 343 ومج: 7، ص: 94.

10-يحي ابن خلدون، بغية الرواد، الجزائر: منشورات المكتبة الوطنية، 1980، ج:1، ص: 205

11-التنسي، نظم الدر والعقيان، الجزائر: منشورات المكتبة الوطنية، 1985،ص: 116.

12-نسجل هنا إرجاع اسم المهدي في المراسلات الرسمية على عهد الخليفة الرشيد لأن والده المأمون (624- 630هـ)كان قد قام باستئصال جذور عقيدة الموحدين التي وضع أسسها ابن تومرت من كل بلاد المغرب، وأمر بحذف اسم المهدي مما سيضرب من سكة ومن خطبة الجمعة ومن المراسلات الرسمية، في نفس الوقت أمر بإلغاء كل الاحتفالات والعبارات والطقوس التي

تدل على عقيدة الموحدين، والتي سرى العمل بها منذ تأسيس الدولة، وكان ذلك في سنة 627هـ.

ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973 ،ص: 251.

13-كلمة يتوسطها بياض.

14-يقال رجل حسان وامرأة حسانة بضم الحاء